الخوف من أن نُحبّ

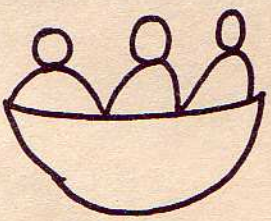

تأليف جان فانييه
ترجمة سليم دكّاش
و أنطوان أودو

الإنسان الذي يعيش على هامش الحياة هو الذي يحمل في طيّات ذاته صورة مشوّهة عن نفسه وبذلك نكون، نوعًا ما، كلّنا «هامشيين»: فكلّ واحد منا يحمل في ذاته صورةً مشوّهة عن ذاته ولا نعلم جيّداً مَن نحن بالتمام. نعلم أنّنا أشخاص، كلّ واحد منا قدرة الأزلي وأننا أبناء الله. ولكن بين هذا القول، أعني بين الإيمان الذي هو في أساس هذا القول، بين وعينا بأنّ الله يحبّنا وفي استطاعتنا القيام بأجمل الأشياء وبين الواقع اليومي المعيوش، هناك هوّة كبيرة أحياناً.

فالواقع أنّ هناك الكثير بيننا ممّن يعيشون أحياناً على حافة اليأس، أو في حالة حزن تمنعهم من أيّة انطلاقة ومن القيام بأيّ عمل خلّاق. ففي داخلنا، هناك تلك الصورة التي شوّهتها الخطيئة وفقرنا الأخلاقي والروحي. إني لا أتكلّم هنا عن السعادة التي يولّدها الفقر الإنجيلي، بل عن ذلك النوع من الفقر اليائس الذي يخلّفه ضعفنا وخياناتنا وقلّة ثقتنا بغفران الله. فلسنا نتحسّس بادئ ذي بدء نداء الله أو الدعوة إلى المحبّة بل ما هو محطّم في داخلنا. وهكذا لم نعد نعرف هويتنا بالضبط.

عالمٌ من القلق

هذه الصورة السلبيّة تأتي في الغالب من سنوات حياتنا الأولى إذ نتصوّر بأنّنا كنّا مرفوضين أو لم نكن محبوبين لأشخاصنا فقط.

لقد تأثّرتُ جدًّا من لقائي بشخص اكتشف بأنّه كان محبوبًا فقط لأنّه كان ينجح في دروسه بشكل باهر. وقد أسرّ لي بالتالي: «علَيّ أن أنجح دائمًا وإلّا يتخيّل لي بأني ألقى الموت، بأنّ هناك فراغًا كبيرًا وبأنّي لن أكون محبوبًا».

بين أن تكونَ محبوبًا لنجاحكَ أو للمنصب الذي تتبوّأه وبين أن تكونَ محبوبًا لأنكَ أنتَ أنت، هناك بعض الفرق. فالطفل الصغير يكون محبوبًا، لا لأنه يقوم بالعمل النافع، بل لأنه منحدر مني. فلا بأس أن يصرخ كثيرًا، أن يبكي أو يضحك. لكن من الفظاعة بشيء أن يحيا الإنسان مع نوع من الإحساس بأنه محبوب فقط لما يقوم به لا لما هو فقط.

ويتخيّل للإنسان الراشي بأنه من المحال حقًّا أن يُحَبّ لأنه هو هو وأنه بالتالي من المحال أن ينجح في ما يقوم به من أعمال. وهذه الصورة المشوّهة المعبّرة عن نفسه، على مستوى ما يقوم به وعلى مستوى هويّته الشخصية، تتركه في نفسه عالمًا من القرف والكآبة واحساسًا بأنّ رائحته كريهة وبأنّه مرفوض من محيطه

وتخلّف يأساً حقيقيّاً .

ولكن لسنا نستطيع البقاء في بحر من اليأس لأنّ هذا الشعور الداخلي بالقلق هو الألم الإنساني الأشدّ قسوة . فلربّما يكون الموت أقلّ قسوة من هذا الموت الداخلي ، من بحر القلق هذا ، الذي يؤدّي بالإنسان الى عدم القدرة على النوم أو الأكل . وربما يؤدي الى العكس تماماً : فلا يبقى من شغل للإنسان إلاّ أن يأكل ويشرب وتزداد الحاجة الى الكحول والمخدّرات والى شتّى الأنواع من التعويض . ويصبح الإنسان منزعجاً من كلّ شيء وفي حالة نفسية يتخيّل له من خلالها بأنّ الآخرين يراقبون دوماً ما هو قبيح في ذواتنا . لا شكّ بأنه من الصعب تحمّل نظرات الناس تلك .

ويطلق بنا هذا القلق الكابوس إلى عالم الأحلام والى الغرق في المرض العقلي لأنّ هذا مريح للإنسان ! ففي عالم الأحلام ، يشعر الإنسان بأنه في مملكته وبأن لا أحد يزعجه . والمشكلة أنّ العودة إلى الواقع تعني له عودةً الى الجحيم والى الشعور بأنه مرفوض من محيطه .

هناك العديد من الأشخاص يعيشون منذ سنوات في المصحّات العقلية ويحيون دوماً في عالم من الأحلام . فالقضيّة الأساسية لا تتمثل بشفاء مريض ما كما لو كان قد أصابه مرض بقدر ما تكون بتوفير طريقة حياة يشعر فيها بالفرح وبأنه مقبول من محيطه ويستطيع من خلالها التعبير عن حبّه للآخرين ، وعن قدرته على العمل وبأنه يستطيع عيش حياة تتطابق مع كرامة شخصه . وإذا أعيد الى عالم لا يرى فيه إلاّ صورة قبيحة عن نفسه ، بحجّة اعادته الى الواقع ، فلا يجد فيه إلاّ سخرية الآخرين ويشعر

بأنّه مرفوض. فالأفضل أن يبقى في هوسه. فبعض الأمراض كالهوس ليست سوى نوع من حماية الذات. فالعدوانية هي أيضًا نوع من الحماية. فعندما يصبح الإنسان شرسًا وعنيفًا يريد تخريب كلّ شيء. هذا يعني أنّ هدفه الوحيد هو الهروب من القلق القاسي.

اليد الممدودة

لمساعدة أحدهم على الخروج من تلك الحالة، ولمساعدة كلّ واحد منا لإستعادة الأمل والعيش حقيقة، لا بدّ من أن تكون هناك يدٌ ممدودة. ليس هناك من حاجةٍ إلى يدٍ ممدودة فقط، بل إلى وجه وإلى نظرة تساعد ذاك الشخص على استعادة صورة ايجابيّة عن نفسه. ولا بدّ من القول لذلك الشخص: «لا شكّ أنّ هناك نواة جمال أكثر رسوخًا في ذاتك من هوسك ومن عنفك ومن حقدك».

ولا بدّ أيضًا من التعبير عن هذا أمام ذلك الشخص بالعينين واليدين والتأكيد له، شيئًا فشيئًا، بأنّ شخصيته الأساسية ليست بقبيحة بل نزيهة وجميلة تستطيع القيام بأروع الأشياء. ولا يكفي بأن تقول له هذا لمرّة واحدة. فلا بدّ من أن تعيد هذا مرّات ومرّات أمامه وأن يتمّ تأكيده ربّما خلال سنوات. لقد أمضيت أوقاتًا في سجن في هايتي حيث عشت لحظاتٍ رائعة. السجن كانت تؤوي أناسًا غلاظًا بدائيين وشديدي العنف. في القسم الأول من السجن كان هناك عشرون امرأة، وفي الثاني عشرون رجلًا، وخلف هؤلاء أغلق باب قفص كبير على حوالي المئة من رجال اعتقلوا بالتأكيد في

مدينة الأكواخ الفقيرة حيث اعترفوا على ما يبدو أعمال العنف بعد أن شربوا حتى سكروا.

وطُلب مني أن أقف أمامهم لأحادثهم. في بداية حديثي، كانت وجوههم مطبقة جدًا. كنت أتكلم بالفرنسية والأب بودري يترجم الى اللغة المحلية. شعرت أنهم يرفضون وجودي لأني من اللون الأبيض ولأني غريب عنهم وسألقي عليهم عظة في ضرورة عمل الخير في الحياة.

ثم بدأت أتحدث عن الأطفال، عن صورة الطفل التي أحملها في قلبي والتي هي في قلب كل واحد منهم، وعن عطش الطفل الى الحنان وعن الصورة التي أحملها عن ذاتي وتلك التي يحملونها عن ذواتهم. وفي الختام قلت لهم: «ربما لن يخرج واحد منكم من هذا السجن، وربما تخرجون منه للعودة إليه بعد أسابيع معدودة، وربما رفضكم المجتمع الذي أنتم منه. مع ذلك، إن أمنيتي أن يكتشف العالم ذاك الجمال القابع في خبايا شخصكم. وأمنيتي هي أن نرث القيامة جميعًا وإذ ذاك يظهر ذاك الجمال ويعترف الجميع بقيمته وبوجوده. إنكم تعلمون جيدًا بأنه يوجد في أعماق قلب كل واحد منكم لهفة يفتش عن الحنان».

إذ ذاك، رأيت وجوهًا تنفرج وقد أخذت تطل علينا بسائر الابتسام بينما ظللتنا جميعًا لحظة من الوحدة. لقد كانت لحظة السلام تلك مريحة جدًا، فربما رجعت تلك اللحظة إلى الذاكرة وقت الموت وأعطتهم ثقة كبيرة. لكن هذا لا يكفي وحده لإشفائهم. وحتى يصبح أولئك الرجال أشخاصًا بنائين، من المفروض أن يكون أحدٌ إلى جانبهم، يومًا بعد يوم، خاصة وأنهم لم يجدوا الى جانبهم إلا لفترات محدودة، تلك الأم التي هم بحاجة إليها عندما كانوا صغارًا، أمًا تقول لهم: «إن بكيت وإن ضحكت، إن مشيت أو لا فأنت طفلي وأحبك، أنت وحيدي». ولكي يعوضوا ما فاتهم خلال تلك السنوات العجاف، من المفروض أن

يكون هناك صديق إلى جانبهم يردّد دوماً على مسامعهم: «لا تستطيع القيام بأحلى الأشياء ولست محكوماً بأن تعيش في حالات الكآبة والعزلة والموت. ففي أعماق ذاتك، هناك علامات قيامة ممكنة».

الواقع الخطير ...

وربّما تكون اليد الممدودة هذه شيئاً جميلاً جدّاً أو خطيراً جدّاً لأنّه يحدث أن يكون صاحب تلك اليد إمّا مخادعاً وإمّا منافقاً وأن يقول: «أحبّك» في وقت لا يظهر حبّه بالفعل، وأن يقول هذا لأنه قرأ عنه في الكتب أو لأنّه مكلّف بالحب. واليد الممدودة تصبح واقعاً خطيراً جدّاً في حال أعطى شخص لآخر رجاء غير صادق. فالذي يحمل صورة مشوّهة عن ذاته ويعتقد بأنّ رائحة جسمه كريهة وبأنه مجموعة من أوساخ وأنّ لا شيء جيّد فيه، لن يمسك بعدُ يداً ممدودة صوبه لأنّه يعرف النتائج سلفاً. فإذا أخذ تلك اليد وعاد الأمل فيه إلى الوجود في حين تتركه تلك اليد في عزلته، حينذاك تكون نهاية كل شيء.

كنتُ أقرأ، البارحة، قصيدة مؤثرة كتبها رجل في سجنه:

« إذا توقّفتَ على قارعة الطريق،
ونظرتَ إليّ
إذا أمسكتَ بيدي وأمسكتُ بيدك،
وإذا تركتني بعد ذلك
وعندما يأتي غيرك يمدّ لي اليد
فلا تفاجأ
إذا لطمته على الوجه.

إن قامَ أحدُنا بتجربة ذات نتائج سيّئة، يكون من الصّعب جدّاً أن نجرّب مرّةً ثانية. فمن غير المحتمل أن أسمع أحداً يقول لي: «ثق»، عندما تكون التجربة الأولى قد فشلت وسبّبت لي ذلك الضياع والحزن. حينذاك أقول: «كلّكم كذبة».

التقيتُ مرّةً في بلجيكا بشخصٍ كان قد قام بعملٍ حسن ولكن الجواب كان إصابة في الصّميم (لا جسديّاً بل معنويّاً). وقال لي ذلك الشخص: «لقد جُرِحت للغاية بشكل لم أعد أستطيع العطاء بسبب ما جرى». ولقد شرحتُ له لماذا كان عليه أن يُجرَح وكيف أنّ العديد من المعذّبين لا يحتملون أن تُمَدّ صوبهم يدّ.

لا شكّ أنّ كل شخص بحاجةٍ حوله إلى طبقةٍ من الهواء (وهذه صورة بالطبع)، إلى زنار أمني، إلى مجالٍ حيوي. ويوجد هناك كثيرون من ذوي النيّات الحسنة على مثال تلك السيّدة البلجيكية، يريدون الدخول إلى مجال الآخرين الحيوي كي يمدّوا يد المساعدة. لكن الإنسان المجروح في الصميم لا يحتمل ذلك. لقد حاول بعضهم "اغتصابه" وردّة فعله اليوم هي أنّه سيعضّ، سيضرب ويصرخ أو ينغلق على ذاته أكثر. هناك بعض الأشخاص الذين لا يملكون حسّ الحبّ الحقيقي ويعتقدون بأنّ الحبّ يكون ترهدُنة خواطر أو إعطاء شيء، والدخول من ثمّ في المجال الحيوي بغية عمل الخير. ولكن ما نستطيع أن نفعله إذا رفض الآخر إدخالنا في مجاله الحيوي؟

لهذه الأسباب، علينا احترام ذلك المجال الذي يحتاجه الكثيرون حولهم. وهذا ما نشعر به خاصةً في تصرّفاتنا مع أولئك الذين هم مجروحون عقليّاً، حين نحاول الدخول بعيداً في عالمهم ونحاول التصرّف بشؤونهم الحميمة، يشعرون بنوعٍ

من خطر خارجي يتهددهم فيزداد انغلاقهم على ذواتهم فيبدأون بالصراخ لأن أحدنا يحاول اختراق عالمهم الحميم.

ينبغي عليه أن يمرّ في خانة الامتحان

لا شكّ أنّ علينا امتحان يد ممدودة، كما نمتحن دائماً المسؤول الجديد، أيّاً كانت مسؤوليته لمعرفة إمكانياته وماهيتها. نحن بحاجة دائماً لمعرفة الأمور التالية: «ما هي إمكانياتك؟ إلى أي حدّ نستطيع وضع ثقتنا بك؟ أية حدود من القوّة والحياة تحمل في طيّات ذاتك وهل أنت ملتزم بقضيّتي؟

من ناحية أخرى، لا بدّ بالأحرى من امتحان مَن يملك سلطة روحية. فعندما يصل الكاهن الى رعيّة ما، على أبناء الرعيّة العمل لمعرفة ما إذا كانوا يستطيعون وضع ثقتهم فيه. وهذا جدّ مهمّ. وهذا يتماشى مع مَن يملك مسؤولية إنسانية. وأقول بأنّ هذا ضروري بالنسبة لإنسان هامشي يرى نجاة يداً تمتدّ نحوه. فعليه أن يعرف بعض الأمور الحيوية: «ما هي الدوافع؟ ولماذا تريد مساعدتي؟ هل تريد أن تصنع هذا لمجدكَ الشخصيّ؟ أمن أجل أجرٍ معيّن؟ أو من أجل مصالح شخصيّة؟ هل تريد أن تبرهن بأنك تستطيع القيام بأعمال ذات أهميّة؟

من الممكن التساؤل عمّا يدفع أحدهم إلى أن يكون حارس سجن. لا شكّ أن شعوراً بالسلطان والقدرة يعتري ذاك الذي يعطي الأوامر خاصّةً عندما يرى أنّ المأمورين يخضعون لأوامره. لا شكّ أن بعضهم، من أولئك الذين لا يملكون الطاقات العالية، يشعرون بتلك الحاجة إلى إصدار الأوامر والى إخضاع الناس لأوامرهم وذلك لإذكاء الشعور الداخلي

بأنهم موجودون. طبعاً، علينا أن لا نُعمِّم هذا، لكن علينا في الوقت نفسه الإدراك بأن هذا التصرّف موجود. فعندما يأمر أحدنا بغية الوصول الى الإحساس بأنه موجود ولا لمساعدة الآخرين ليصيروا أحراراً، تكون النتيجة بأن الأمر يصبح شكلاً من أشكال الإكراه المخيف.

لذلك لا أستطيع الخضوع إلى أحدهم، خاصّةً اذا كنت ضعيفاً ورهيف الإحساس، دون الإدراك المسبق بأنني هنا أمامي لإظهار سلطته عليَّ أو بالأحرى لأنّ شخصيتي لوحدها هي التي تزعجه.

هناك آلاف الأشكال لامتحان دوافع أحدهم. فالشخص الجريح في أعماقه يدرك، وبسرعة فائقة دوافع ذاك الذي يمدّ له اليد. إنه يشعر بتلك الدوافع، لا بل يستبق ظهورها من خلال الوجه واليد ونبرة الصوت. وغالباً، ان نبرة الصوت تعبّر بأكثر ممّا يقوله صاحب الصوت.

في اليد الممدودة، هناك شيء من الانزدواجية وهذا ما نختبره دوماً هنا في «الأرشن»: «أن تمدّ لي يدك، هذا يعني بأني مريض. وان أقبل أخذ يدك لمساعدتي، هذا يعني بأني إنسان لا نفع فيه». وهكذا يصبح أولئك الأشخاص في نوع من المأزق الذي لا حلّ له: فإذا قبلوا النجدة، هذا برهان لعدم قيمتهم وإذا رفضوها يصبحون في عزلة خانقة. أقول هذا لأُلمح إليكم بأنّ علينا أن نكون متواضعين أشدّ التواضع وأن نكون لطفاء بمنتهى اللطافة كي تكون يدنا حاملةً بعض الأمل. علينا أن نوجّه عبر يدنا النداء التالي:

«صحيح أنك مريض، وأنك في حالة صعبة. صحيح أنك سرقت وأنك مخذول اليوم... لكن عندي ثقة بأنك تستطيع القيام بأجمل الأشياء.»

بالحقيقة. ليس من السهل مدّ اليد، وليس من السهل أيضاً قبول اليد الممدودة. فعند الهامشيين وعندنا نحن أيضاً، هناك خوفٌ كبيرٌ من السلطة. فالتعامل معها أمرٌ صعب وصار معترها أمرٌ صعب أيضاً خاصةً عندما أكون قد خضت التجارب المريرة معها عندما كنت صغيراً وخاصةً أن السلطة تظهر بأخذِ مدين لها بكلّ شيء. فالسلطة السيئة هي الشريعة الخالية من كلّ ثقة. هي أن تتلقّى الأوامر دون أن تكون لديك أيّة ثقة بالذي يصدرها. هي تلك السلطة البشعة التي تشوّه وتحطم. هي مجد للذي يصدر الأوامر وليست لنموّ الذي يأتمر بها. أقول بأن بعض الأطفال الذين عانوا من سلطة لا تحتمل، يخافون اليوم متى أصبحوا كباراً من أيّة سلطة.

لديّ الكثير ممّا أقوله في هذا المجال. ويبقى أنّه يجب التعامل مع السلطة والشريعة تحت أشكال الحب والثقة والمسامحة.

الخوف من الحياة

أريد الآن إظهار بعض الصعوبات التي تعترض مسيرة أحد المجروحين في نموّه نحو الحياة الفضلى. غالباً، إنّه يعيش مختلف أنواع الخوف. والدليل الأوضح هو ما يجري في السجون: فالمساجين يصبون الى الحرية، لكنّهم عندما يصيرون أحراراً يعملون للعودة الى السجن كونهم يشعرون بعدم طمأنينة خانقة خارج السجن.

لديّ صديق في أحد أكبر سجون كندا. كان هذا الرجل قد اقتحم مصرفاً وهو ذو قوّة عمل مقدرة وعدائية خارجة عن المألوف. زدْ على ذلك أن أربعمائة سجين

انتخبوه ليكون ممثلهم لدى سلطات السجن وأنّ هذا سيعطيه، والى حدّ كبير، شعوراً كبيراً بالسلطة، ويمنحه مقاماً رفيعاً داخل حياة السجن هذه! ولن يجد هذا الرجل، عند إطلاق سراحه، أربعمائة إنسان لينتخبوه ممثلاً لهم. بالعكس، الجميع سيرفضونه. وسيعود صديقنا الى السجن لكي يشعر مجدّداً بالقوّة والحياة.

داخل السجن، يضع السجين حوله شبكة من الأصدقاء، فهو يعرف الحرّاس، أولئك الذين هم لطفاء وأولئك الذين هم عكس ذلك. فهو يعرف شبكة الوساطات ولديه شبكة أمنيّة- دفاعيّة. وهذا شبيه لما يحصل في المستشفى: حين نتركه، نبقى وكأننا تائهون. إنّ الذي يمضي عشر سنوات في سجن أو في مستشفى، يضع عالماً من الدفاعات التي تسمح له بأن يعيش وذلك حتى في أوضاع شديدة الوطأة خاصة وإن الانسان يستطيع أن يتكيّف مع ما لا يحتمل.

إنّ نزلاء السجون يستطيعون أن يبقوا على قيد الحياة ولست أعلم كيف يكون ذلك. لقد صنعوا لأنفسهم شبكة من الأصدقاء تسمح لهم بأن يستمرّوا في الوجود. ولكن، عندما يخرجون من القاووش، يصبحون دون تلك الوسائل التي تسمح لهم بالتكيّف مع وضعهم الجديد.

وبالمنظور نفسه، من الصعب على أحدهم الخروج من عالم الأحلام وهذا يدفع الى القلق والخوف. فعليه ان يتخذ القرارات بنفسه وهو يخاف ولا يريد الإقدام على ذلك لأن لديه صورة مشوّهة عن نفسه. وأقول لكم أن الكثيرين يعيشون هذا التنازع. وهذا ما نشعر به جميعاً فعندما تشتدّ علينا وطأة الإنفلونزا ونبقى طريحي الفراش لن ننظر بعين غير راضية حين يأتون إلينا بالطعام كعلامة تدليل. ولكن حين تنحسر عنا الحرارة، يصبح الأمر مزعجاً إذ

علينا تحضير وجبة الصباح بأنفسنا! هذا يعني بأنه من المرجح أن يدهمنا المرض! على كلّ حال، هناك بعض الأشخاص الذين يتعارضون لأنّ المريض يرى حوله الكثير ممن لا يراهم وقت يكون معافًا.

ما أقوله بالنسبة إلى انفلونزا بسيطة، يصحّ أيضًا حين أتكلّم عن ذاك الذي ترك آخرين يأخذون القرارات الصعبة مكانه. وعندما يعيش أحدهم والفكرة التالية تراوده دومًا: «أنا معاق»، يجد نفسه في طريق مسدود حين يأخذ بالتقدّم نحو الاستقلال الذاتي. فهو يكون قد طوّر سلسلة من الدفاعات والتأمينات التي تسمح له بعدم الحركة وبالبقاء في عالمه الصغير وبأن يقوم الآخرون بما يستطيع أن يفعله هو. وهذا يعني بأنه سيجد نفسه في حالة صعبة عندما يقال له يومًا: «تحرّر بنفسك».

وأريد لفت الانتباه أيضًا الى أنّ التمييز بين المساعدين من جهة والمستفيدين من العون من جهة أخرى ربّما يكون مفيدًا. فلا يجب إلغاء هذا التمييز لأنّ ذلك من شأنه دفع العديدين الى حالة مأساوية ولأن لا نموّ إلّا حيث هناك بعض الحماية.

لا شكّ أنّ فينا خوفًا، على ما أعتقد، من الإقدام وهو خوف من الحياة وخوف من يسوع المسيح. نحن نعرف عالمنا الصغير وعاداتنا وأصدقاءنا وعدد ساعات ما نمضيه في النوم... ولكن ماذا لو نتبع المسيح؟ وماذا لو نقلب كل هذا رأسًا على عقب؟

خوفنا من أن نحبّ

كيف نستطيع أن نتجاوز واقع خوفنا من أن نحبّ؟ لقد حدثتكم عن أحد المساجين في ألاباما وقد قال لي: «قد ضُربت طوال حياتي كثيراً. فعندما يقترب مني أحدهم ملتمساً لي الخير، فلا أعرف ماذا أصنع، فإني أتحيّر كلّ التحيّر ...»

عندما يحاول بعضهم أن يتجاوز ما أُسمّيه الجال السرّي الذي يحوط بنا، موقظاً فينا قوّة الحب الخفيّة هذه فإننا نشعر بالخوف. ففي الحبّ شيء من الهاجس، إنّما في معناه الإيجابي، فهو على شاكلة الأم المهجوسة بابنها، فهي منجذبة إليه بشكل دائم. إنه لمن الصعب أن نعرف كيف نستعمل واقع الحبّ هذا المنبثق من أعماق ذاتنا، فإننا لا نعرف كيف نقيس أبعاده، وكيف نراقبه ولاسيّما أنّ واقع الحبّ في قوته الايجابيّة (نظرات، حركات، الخ ...) مرتبط بعالم من العبوديات وهي الحرمان والحسد والحقد وذلك كلّه لأنّ الحبّ يجعل منّا رجالاً معرّضين للضعف.

وفي هذه الحال، أين حريتنا؟ أين استقلاليتنا؟ هو سؤال سارتر في كتابه «الذات والعدم». فهو يعتقد أنّ الحبّ هو أن نأكل حريّة الآخر. فهو لم يعِ أبداً ماذا يعني انسجام شخصين في الوحدة، واتفاق الشعور واتفاق الأرواح وبكلمة، ما قيل في سفر أعمال الرسل «ولم يكن لهم سوى قلب واحد وروح واحد». إنه لمن الصعب أن نشرح هذه الوحدة ما بين الأشخاص، لأنها حقيقة شديدة العمق.

أن نمدّ يدنا إلى إنسانٍ ما، قد يثير في ذاته

- ولا سيما لدى الشخص الرومانسي - صوراً عديدة وهواجس قد تجعله إنساناً تعساً. أن نحلم الجمال الذي اعتاد الإنسان على أن يعيش فيه، هو أمر شديد الخطورة، لأن ذلك قد يطلق من قلبه طاقات من الحسد والحقد ويكشف له بذلك الأمور السيئة التي هي فيه. فني تصرفنا هذا نصل الى نتيجة معاكسة الى ما كنا نتوخاه: فعوضاً عن أن نكشف له عن صورة ايجابية عن ذاته، فقد كشفنا أو أثبتنا الصورة السلبية، وبامكان ذلك أن يفقده شخصيته تماماً. عندما يفقد الانسان شخصيته مرّة واحدة بسبب الحبّ، وفي علاقة شخصية تختلف تماماً عن العلاقة الشكلية، فهو يخاف من الحبّ.

وكذلك إن انتظر القابض على اليد هذه أكثر مما يريد الآخر أن يعطيه، ففي هذه الحال يتراجع الحبّ ويلد الحقد مكانه والرغبة في قتل الموضوع المحبوب وقد صار أمراً غير محتمل: لأنّ الآخر يريد أن يضع حدوداً لعلاقة أريدها دون حدود. فعليّ إذن أن أهدم فيكن في قلبي الحبّ والحقد وهو أمر مريع قد يحصل، وهو أصل كلّ الانهيارات العصبية. إن هذا المزيج من شعور متناقض يولّد الغموض ويجعلني أمام طريق مسدودة: إني أبغض وأحبّ معاً، أريد ولا أريد، أريد الموت وأريد الحياة ... وهي حالة صعبة العيش، فنقع في الانهيار العصبي، في الخمول، لأن نتائجها قد صار خطيراً جدّاً.

أن نمدّ يدنا، أن نتجاوز مجال الآخر، قد يثير ما هو أجمل شيء في الدنيا وما هو أقبح ما يعانيه الضمير البشري: الحسد.

يجب مساعدة الناس على أن يعيشوا هذه الظاهرة الطبيعية جداً، وهي الحسد. وهذا يعني ببساطة، أنه علينا أن نسير معهم إلى أن يتطهّروا من ذلك. ولكن من الغرابة،

الاّ نقرّ بالحسد ... فإننا لا نجسر على أن نقرّ بأننا نحسد، لأنه في نهاية الأمر، هناك ارتباط غير واعٍ ما بين القتل وما بين الحسد. علينا أن نساعد الناس أحياناً على أن يعترفوا بحسدهم وعلى أن يكتشفوا أن ذلك أمرٌ طبيعي جداً.

إنّ ولادة الحبّ لأمرٌ جميلٌ جداً، إلاّ أنّ أموراً أخرى ترافقها وهي الحسد، الحقد، المنازعات ما بين تبعية واستقلال الخ ...

قد يتحوّل الحبّ إلى أمر لا يطاق فلا نحتمل بعد اليد الممدودة لأنها تثير كثيراً من الانفعالات.

كلّ واحد منّا يشعر بحاجة حيويّة إلى مجالٍ سرّي. فكلّ واحدٍ منّا على العموم، يعرف حدوده ويعرف إلى أين باستطاعته الوصول. علينا أن نحترم جداً المجال الضروري للآخر وألاّ نحاول بشتى الوسائل أن نحطّمه أو أن نسرع الخطى. هذا أمرٌ هام، عندما نكون مسؤولين عن أناس معطوبين، فغالبّاً ما نسمع: «علينا أن نحبّ كثيراً في الأرض، هي جماعة حبّ». هذا صحيح، إنّما علينا أن نستعمل هذه الأمور بنعومة!

إنّنا نرى بعض الأشخاص البسطاء وبالكاد قد وصلوا، يأخذون بيد الآخرين ويسيرون معهم في الشارع ... هذا أمر لطيف جداً، إلاّ أنه نقصٌ كبير في احترام الآخر! هو عدم احترام لمجال الآخر. لا شكّ أحياناً أنّ بعض الناس يستعطون الحبّ، ويقدّرون جداً اللمس باليد، لكن علينا أن نساعدهم في أن يجدوا مجالهم، وهذا لا يتحقق في عملية اللمس. تلك أحياناً هي الطريقة الفضلى في أن نهدم شخصيّتهم تماماً!

علينا إذاً، أن نساعد كلّ إنسان على أن يجد مجاله

الشخصي وأن نحترم هذا الجمال في الوقت نفسه. ليس الحبّ أن نأخذ بيد الآخر ونحن سائرون في الطريق وليس الحبّ في الملاصقة. الحبّ هو أن نساعد الانسان على أن يصير حرًّا وعلى أن يكون ذاته، وعلى أن يكتشف جماله الشخصي وعلى أن يكتشف هذا الجمال كينبوع حياة.

باستطاعتنا أن نقتل بعطائنا. نظنّ أننا نحبّ فنخلق حالةً من التبعيّة تقود إلى الحرمان والحقد، أو أننا نثير عالماً من الغرائز الجنسيّة أو الحسد لا يعرف الآخر البتة طريقة قيادتها.

العطاء الحقيقي الوحيد، هو أن نكشف للآخر صفاته الايجابية، فنعطيه ثقةً بنفسه ونبرهن له على أنه باستطاعته أن يقوم بأمور جميلة.

خوفنا من أن يحبّنا الآخر

غالباً ما يُقال بأنّ الحبّ هو ما يبحث عنه الجميع. هذا صحيح، وهذا غير صحيح أيضاً. قد نخاف من أن يحبّنا الآخر فنخلق حولنا عالماً من الحواجز، لأن الحب واقع خطر يجعلنا معرّضين للضعف.

إذا أُحببنا مثّر لنا، فإننا نقع في عالمٍ من القلق مترقبين النظرات ومتسائلين ماذا يفكر الآخر بنا. ولشدة صعوبة هذا العالم الداخلي فإننا نقطع كلّ علاقة قائلين: «سوف لا نحبّ من بعدُ». ولكن في هذه الحال أيضاً، فالأمور لا تحتمل، لأننا لا نستطيع أن نحب من دون حب بحيث قد يكون في قلب بعض الأشخاص، عطش كبير لحبّ لا محدود فلا يعرفون ماذا يعملون ما بين ما

يؤلمهم من عطش واسع وخوف من أن يحبّوا ومن أن يحبّهم الآخرون.

الخوف من الالتزام

هناك أيضاً الخوف من الالتزام. عندما يقدم بعض الأشخاص على الالتزام فإنهم يرتبكون ويستسلمون للغموض، وذلك يحصل أكثر مما نتصوّر. فعندما نمدّ يدنا إلى انسان محتاج وفي قيام تبعيّة متبادلة بيننا وبينه فذلك يتحوّل الى رعب.

كنت مرّة في شارع سان جرمان فاقتربت مني سيدة وطلبت مني عشرة فرنكات، فسألتها لماذا، فأجابت: «إني لم آكل»، فسألتها لماذا، إلى أن تعارفنا فقالت لي: "أعصابي تعبة"، فأجبتها: «نعم، اني أرى ذلك جيداً» ... فنشأ ما بيننا تعاطف فتقاربنا، وفي نفس الوقت تقريباً امتلكنا الخوف. لقد خافت لأنها قالت في نفسها: «ماذا يريد مني هذا الرجل؟» وأنا كذلك خفت لأنني وعيت أنني أقوم بخطوة الى الأمام ولا أستطيع من بعدها أن أتركها تذهب فلا بدّ لي من أن أمضي معها بعض الساعات إن بدأت إخباري قصة حياتها.

وبعبارة أخرى، عندما تولد الثقة المتبادلة، قد يكون ذلك أمراً خطيراً. إننا نكتشف التزامنا المتبادل: «لا أستطيع من بعد أن أتركك، ولا تستطيع أنت من بعد أن تتركني».

إنّنا نلاحظ الظاهرة نفسها أحياناً لدى من يريد الالتزام في الأرض: قد يشعر بشيء من الخوف شائلاً

في نفسه : «إن بقيت فقدت حريّتي وإن لم أبقَ لا أكون سعيداً من بعد. فما العمل ؟»

إنّ موعد الالتزام هو وقت حاسم لأنّنا نعي أكيدين من أمانتنا لالتزامنا. بالنسبة الى المرأة التي لقيتها في شارع سان جرمان، لم يكن الأمر أمر التزام حياتي، ولكنه كان لا بدّ من بضع ساعات، وهو نوع من الالتزام. قد نشعر حقيقةً بنوعٍ من الخوف عندما نلتزم مع الآخر: «هل سأبقى أميناً ؟ قد لا أستطيع عمل شيء له ؟» وعلى العكس من ذلك، اني أخاف من أن يتراجع الآخر عن التزامه فأبقى مع الشعور بضعفي.

الحنان والقوّة

هناك ظاهرة أخرى في الخوف من الحبّ تؤثر في موقف الرجل خاصة. إن الحضارة الحديثة قد علمته بأن الرجولة هي التفوّق، هي النجاح المهني، وهو موقف معاكس للالتزام مع الآخر في موقف إصغاء وحنان. فمنذ الطفولة قد دفعه الناس الى أن يكون الأحسن، الأقوى. فينتج من ذلك ان حقيقة الحبّ العميقة قد تبدو للرجل كانتقاص لرجولته وقوّته. الإصغاء، الالتزام، أمور تبدو وكأنها شديدة السذاجة!

وفي نهاية الأمر، إنّ موقف قلّة ثقة وخوف، لأنّ اقتراب الآخر منّي يجعله يكتشف فقري العميق ويفقده بالتالي الصورة الجميلة (الشديدة الجمال لربّما) التي كان قد كوّنها عني. الأفضل إذاً، أن أتركه بعيداً، لأنه إن اقترب منّي فهو قد يكتشفني كما أنا.

الحبّ هو أن نحترم المسافات التي يضعها الآخر بيننا وبينه، أن نحترم واقعه، والّا نفاجئه، والّا نحاول أن نهدم الحواجز التي يضعها لوقاية نفسه. ففي ذلك نكتشف سرّ حبّ يسوع المسيح العظيم، وما يحمل الى عالمنا المجروح هذا.

إنّ الذي يمدّ يده، يعرف جيّداً أنّه فقير وأنه لا يستطيع أن يكون أميناً وأن دوافعه غير خالية من الشوائب إلّا أنه يثق بأنه لا يعطي «حبّه»، إنما حبّ يسوع المسيح. فلذلك عليه أن يكون مطمئناً بيسوع المسيح كي يستطيع حقيقةً أن يحبّ الآخر باحترام.

يؤكّد لنا يسوع بأنّ هناك قوّة حبّ أقوى من حبّنا الشخصي، وأنه لسنا نحن الذين سيخلقون هذا العالم الاتحادي الذي إليه نتوق. لكن علينا كلّنا أن نكون أدوات لرقعةٍ عظيمة، عندما نعي أنّ يسوع يحبّنا في شخصيّتنا، وذلك ليس لتفوّقنا أو لكفاءاتنا، إنما كما نحن في فقرنا الذي يعرفه أحسن معرفة، فإننا نكتشف بأننا مدعوون نحن أيضاً إلى أن نحبّ الآخر في فقره.

قد يتطلّب ذلك سنيناً، ولكن ما همّ ذلك! المهمّ ليس الشفاء، بل الثقة المتبادلة، النموّ، الرجاء، لأنّ اليد الممدودة لا تقول فقط: «إني أحبّك في ضعفك وفي فقرك»، لكن تقول أيضاً: «اني أثق بأنه باستطاعتك أن تنمو، باستطاعتك أن تكبر وتعمل شيئاً جميلاً».

بقدر ما نكتشف رحمة يسوع المسيح اللامحدودة،

ورقة مسامحته لنا. فإننا بهذا المقدار نستطيع أن نصير أدوات رحمة ومسامحة لاخوتنا. لا نُعطى المسامحة مرّةً واحدة وبالصدفة. الحبّ هو دومًا حبّ مسامح، هو حبّ الرحمة الذي يتجاوز عيوب الآخر منطلقاً الى لقاء شخصيته الحقيقية، حيث يسكن الروح القدس الذي هو كلّ إنسان بشري.

مطمّحون بيسوع المسيح

لا أهمية لشعورنا بجسد متنوّع ورغبات في الامتلاك، لأنّ الحب الذي به نحن مطمّحون، حب الله، هو أقوى وعلينا أن نقبل ببساطة الظلمات التي فينا وأن ندع ذواتنا تنطرّ بيسوع المسيح.

يقول لنا يسوع: « باستطاعتك أن تجازف في الحبّ، أن تمدّ يدك. قد ترتكب لربّما بعض الهفوات، لكن لا تقلق. فلا تخف من ألّا تكون أميناً، لأنه في آخر الأمر، هي أمانتي التي تمرّ في داخلك ».

علينا أن نعلم انه ليس باستطاعتنا أن نكون أمينين بمقدرتنا. من دون القوّة الآتية من قلب يسوع، لا يوجد حبّ شفّاف، قوي وحقيقي، يعطي حقًا الحياة. خارجًا عن الله، يصبح الحبّ دومًا محتكراً: نريد أن نأخذ، نريد أن نمتلك، نريد أن نحتفظ لذواتنا أو أن نلمع أمام أعين الآخرين. فعوضًا عن أن نسعى إلى أن نعطي الحياة ببساطة، ليس نحن بل يسوع من خلالنا.

إنّه لمن غير الممكن أن نمدّ يدنا لشخص معطوب محتومين مخاوفه كلّها وبطء نموّه، إن لم نكن مطمّحون بالروح

القدس ويسوع. هما فقط باستطاعتهما أن يعطيانا القوة والسلام الداخليين جاعلين من حبنا حباً صادقاً، ليس حباً سطحياً، وليس حباً يبحث عن مقدرتنا وعن مجدنا، إنما حب يهب الحياة، ومن خلاله يستطيع الإنسان المعطوب أن يكتشف أنه ينبوع حياة.